أماكن المنفى في الرواية الكنفانية

علاقاتها وتحولاتها الدلالية

عبد الرحمن بسيسو

تتداخل النصوص الروائية لغسان كنفاني لتشكّل، عبر تضافر شفراتها وتشابك علاقاتها وتفاعلها المفتوح، سياقها الخاص، في إطار السياق العام للرواية الفلسطينية، الذاهبة نحو تأسيس مسارها داخل السياق العام للرواية العربية، والعالمية أيضاً. وتتأكد جدارة هذا الافتراض حين نتعامل، مباشرة، مع النصوص الروائية الناجزة لغسان كنفاني؛ الاربع الروايات المعروفة[1] والتي كان غسان قد أتمّها ونشرها قبل استشهاده، فلقد جاءت كل واحدة من هذه الروايات وهي تحمل سؤالها، وتترك الاجابة عنه مفتوحة، لنعثر عليها، أو على اتجاه البحث عنها، في الرواية التالية، فأبطال الرواية الاولى «رجال في الشمس» المقتلعون لتوهم من الوطن، والمقذوف بهم الى شراسة المنفى، والمدفوعون، قسراً وعنتاً، الى الانخراط فيه، يتساءلون عن علّة وجودهم في هذا الكون، ويبحثون تحت ضغط الضرورات الاجتماعية والطبيعية والاقتصادية والسياسية... الخ، عن حلول فردية لمآسيهم التي نظروا اليها على نحو فردي، فيذهب بحثهم نحو الاتجاه الذي تفرضه طبيعة هذه النظرة الفردية؛ اتجاه الانخراط في المنفى، والبحث عن منفى آخر في المنفى، اتجاه يسير في الاتجاه المعاكس للوطن، وهو مسكون بوعي عاجز عن وعي عقابيل الاذعان لسطوة القوى المروجة لفكرة وجود علّة للوجود، ولبناء المستقبل الفردي أو الجماعي، خارج الوطن، وخارج الانخراط في حركة جماعية تعمل، بدأب، من اجل استعادته وبناء مستقبله ومستقبل الانسان فيه. واذ تنتهي «رجال في الشمس» بموت رجالها الثلاثة داخل «خزان» وهم يحاولون اجتياز «الحدود» البعيدة عن «حدود» الوطن، نهاية فعلية، منطقية، لرواية درامية ولمسار الاحداث فيها، فإنها، أي الرواية، تعود لتحفر مساراً جديداً ينطلق من نهايتها، من الموت لتلقى ـ عبر مفصلها الاخير: القبر ـ بالجثث الثلاث في «مزبلة» في عراء الصحراء ومحرقة الشمس، ولتغرس سؤالها في صحراء الذات الفلسطينية الهاربة، وفي الكون: «لماذا لم تدقوا جدران الخزان؛ لماذا لم تقرعوا جدران الخزان؟ لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟»[2]. وهو السؤال ـ الفكرة التي تنزلق من رأس أبي الخيزران ـ سائق الشاحنة. لتتدحرج على لسانه، ولتبدأ «الصحراء كلها تردد الصدى»[3].

ينسل سؤال النهاية الثانية للرواية الاولى: «رجال في الشمس» ليحفر لنفسه مساراً في الرواية الثانية: «ما تبقى لكم»، بحيث يتطور الآخر من مجرد السؤال عن علّة الوجود، وعن مسارب البحث عن مستقبل في المنفى، وعن الموت الذي نجم عن العجز عن دق جدران الخزان ـ القبر، الى السؤال عن الهوية: مَنْ أنا؛ وهو سؤال مسكون بالاسئلة السابقة، بالقدر نفسه الذي ينفتح فيه على